تجليات الأدب المنجمي في بعض الانتاجات الأدبية لأبناء مدينة جرادة

الباحث محمد بوعيادي
طالب بسلك الدكتوراه
مختبر التراث الثقافي والتنمية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة
المغرب

مقدمة:

إن المطلع على تاريخ مدينة جرادة يعرف أنها مدينة منجمية ارتبطت نشأتها التاريخية أساسا باكتشاف الفحم الحجري في سياق تاريخي شهدت فيه الرأسمالية الأوربية تطورات كبرى خلال القرن 19م وبداية القرن 20م، تحولت من خلالها إلى إمبريالية لتوسيع احتكاراتها خارج أوربا عن طريق احتلال البلدان المتخلفة في إفريقيا وأسيا والشرق الأوسط إلخ.. بحثا عن المواد الأولية ومصادر الطاقة.

كان المغرب من الدول التي تعرضت للضغوط الإمبريالية خلال القرن 19م وبداية القرن 20م، حيث بدأت الدول الأوربية ترسل باحثين جيولوجيين إلى المغرب للتنقيب عن الموارد الطبيعية... وفي هذا السياق تم اكتشاف الفحم الحجري بمدينة جرادة في بداية القرن 20م، فبدأ الإنتاج بعدها في بداية الثلاثينات من نفس القرن، مما جعل المنطقة قبلة للهجرات العمالية من مختلف مدن المغرب، فبدأت تتشكل المعالم الحضرية لمدينة جرادة.

عاش عمال مناجم جرادة خلال مرحلة الاستعمار ظروفا قاسية، حيث استغلتهم الإمبريالية الفرنسية ابشع استغلال ضاربة حقوقهم المادية والمعنوية عرض الحائط، فلم يستفيدوا من أبسط شروط الأمن والحماية من المخاطر داخل المناجم، ولم تكن لهم أي تغطية صحية أو اجتماعية.. واستمر هذا الوضع المزر للعمال حتى في مرحلة ما بعد الاستعمار.

لم يكن بيد أبناء عمال المناجم بمدينة جرادة من حيلة للتخفيف من معاناة أباءهم إلا النضال الفكري والأدبي، فغيرتهم على مدينتهم وتعاطفهم مع العمال دفعهم لحمل القلم وإبداع كتابات أدبية هادفة عرت الواقع المر الذي عاشته مدينة جرادة سواء في الباطن أو على السطح، وهو شكل من أشكال الأدب الذي انتشر قبل ذلك بتونس دفاعا عن عمال مناجم الفوسفاط، وسمي هذا النوع من الأدب ب"الأدب المنجمي". وقبل الخوض في صلب الموضوع لابد من تحديد إشكاليته العامة وهي كالآتي:

ماهي تجليات الأدب المنجمي في إبداعات بعض أدباء مدينة جرادة؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة وهي: أين تقع مدينة جرادة؟ وما أهم محطاتها التاريخية؟ وما مفهوم الأدب المنجمي؟ وما مدى حضوره في الإبداعات الأدبية لأبناء مدينة جرادة؟

وبناء على الإشكالية المطروحة يمكننا صياغة فرضية واحدة حول الموضوع وهي أن الأدب المنجمي حاضر بقوة في الإبداعات الأدبية لأبناء مدينة جرادة.

وعليه، جاء تصميم الموضوع كالآتي:

1)- موقع مدينة جرادة في المغرب، ونبذة تاريخية عنها.

2)- مفهوم الأدب المنجمي.

3)- تجليات الأدب المنجمي في الإبداعات الأدبية لأبناء مدينة جرادة.

1)- الموقع الجغرافي لمدينة جرادة ونبذة تاريخية عنها:

أ- الموقع الجغرافي لمدينة جرادة:

تقع مدينة جرادة على بعد 60 كلم من الجنوب الغربي لمدينة وجدة عاصمة المغرب الشرقي، هذه المدينة محصورة داخل الجماعة القروية للعوينات، وبين كتلتين صخريتين، في الشمال نجد سلسلة جبال الهورست المتكونة من صفائح متمددة شرق شمال شرق بعلو متوسط من 1200 إلى 1400متر، ومنفصلة بسهول عريضة بعلو متوسط يبلغ 1000متر، أما في الجنوب فإن المدينة تحد بالنجود العليا. هذه العوامل تلعب دورا سلبيا في نمو المدينة.[1]

تمتد المدينة على مساحة 18.3 كلم مربع تحيط بها من كل الجهات جماعة لعوينات، وتحاصرها من الشمال سلسلة الهورست ومن الجنوب النجود العليا، ويتميز الاطار الجغرافي المحيط بمدينة جرادة بالتنوع، يتكون أساسا من الجبال بالشمال، والنجود العليا بالجنوب مع وجود هضاب وسهول شاسعة، ولا يشكل هذا التنوع أي عائق من ناحية المواصلات.[2]

ب- نبذة تاريخية عن مدينة جرادة:

هناك كتابات تاريخية عديدة ترجع نشأة مدينة جرادة إلى العقد الثالث من القرن العشرين، كما هو الشأن عند عالمي الاجتماع باسكون وروبير مونتانيي، اللذين يرجعان الفضل في تشييدها إلى فرنسا. ولكن يمكن اعتبار مثل هذه الكتابات تدخل في باب الدعاية للمرحلة الاستعمارية، لأن ناحية جرادة كانت معروفة منذ أمد بعيد وكانت عبارة عن مجال جغرافي واسع يخضع لسلطة جبلية ذات غابة تتشكل أساسا من أشجار البلوط. وقد كانت تتميز بطابعها الصحراوي الصرف حيث ينعدم الماء وتكاد تنعدم فيها أبسط شروط الحياة وكانت معروفة ب "فدان الجمل" وكان مجالا لرعاية القبائل البدوية المجاورة – بني يعلى، أولاد سدي علي بوشنافة، بني كيل، بني مطهر... وغيرهم – هذه القبائل التي قطنت في خيام من الصوف أو الحلفاء، واعتمدت القبائل البدوية التي قطنت منطقة جرادة على الاقتصاد الرعوي الذي يعتمد على تضامن الجماعة ويتميز بالثقافة الواحدة وبنفس العادات الاجتماعية[3].

- اكتشاف الفحم الحجري بالمنطقة(جرادة):

قبل توقيع معاهدة الحماية سنة 1912م، أرسلت فرنسا مجموعة من الباحثين الجيولوجيون قصد دراسة جيولوجية بعض المناطق لإلحاقها بالإمبراطورية الفرنسية.وقد استطاع الجيولوجي الفرنسي لويس جونتيل سنة 1908م، من التوصل إلى اكتشاف العلامات الأولى لوجود الفحم الحجري بمنطقة جرادة. وفي سنة 1927 وتبعا لدراسة أجرتها إحدى الشركات استطاع الجيولوجي البلجيكي اورگي اكتشاف حوض الفحم بجرادة، وقد بدأ استغلال الفحم بمجرد الانتهاء من حفر آبار الاستخراج عام 1936. وهكذا أصبحت جرادة مركزاً منجمياً لينشأ مجتمعاً آخر، وأسلوب حياة آخر، جديد، وبفضل الأهمية الاقتصادية التي أصبحت لجرادة مع اكتشاف الفحم فقد أضحت قبلة لهجرة القبائل الرعوية المجاورة التي استقرت بالمدينة وأمدتها باليد العاملة، وإلى جانب هذا فقد استقبلت جرادة قادمين من سوس تزنيت تارودانت تازة الريف الأطلس المتوسط، خصوصاً خلال سنوات الجفاف[4].

ولتشجيع الوافدين على الاستقرار أنشأت شركة المفاحم أحياء ودكاكين وأماكن للتسلية وأخرى للعبادة، في احترام تام للتقاليد الإسلامية والمغربية. وبجانب هده الأحياء الشعبية أنشأت أحياء جديدة، أكثر عصرية بهندستها وطرقها ومجالها الأخضر، عرفت بالأحياء الأوربية- بينما عرفت الأحياء الأخرى بأحياء المغاربية- وهي الأحياء الشعبية.

2)- مفهوم الأدب المنجمي:

"أدب المناجم "، " الأدب المنجميّ "، " أدباء المناجم "، " أدباء منجميون "... مصطلحات متنوّعة ومختلفة. الإشكال المثار هنا: هل يجوز الحديث عن "أدب مناجم" أو " أدب منجميّ "؟ اختلف النّقاد والأدباء حول درجة قبول المصطلح، ويبدو أنّ هذا الاختلاف عائد بالأساس إلى صعوبة تحديد المفهوم المرتبط بهذا المصطلح. والأجدى أن نعود إلى بعض التّناولات في سياقها التّاريخي كي نتمكّن من الوصول إلى ما نزعمه من شرعيّة لـ"أدب المناجم" مصطلحا ومفهوما. وبعض التّناولات لـ "أدب المناجم": ظهرت في السّبعينات والثّمانينات من القرن العشرين في تونس.[5]

في مناطق المناجم وتحديدا في مدينة المتلوي فإن الشعراء هناك سينتظمون حول مواضيع مناجم الفسفاط وما يدور حولها من معاناة وتحد للطبيعة وتعلق بقيم العدالة والانعتاق على المستوى الاجتماعي والإنساني، وقد عرفوا بجماعة "شعراء المناجم"، نذكر من بينهم خاصة محمد عمار شعابنية، وسالم الشعباني، ومحمد مختار الهادي وقد كانوا النواة التي أسست لمهرجان الشعر بالمتلوي الذي مازال مستمرا ومنتظما في دوراته.[6]

يعالج الشعر المنجمي مشكلات اجتماعية او بالأحرى مشكلة شريحة اجتماعية هي فئة "العمال الكادحين في مناجم الفوسفاط كما يقول محمد الخالدي: "انه تصوير او صور للحياة الاجتماعية في المنجم، يحاول شعراؤه بالقصيدة القصيرة والجملة البسيطة الوصول الى هؤلاء العمال الذين يهبطون مع اطلالة كل فجر الى الداموس، باتون من كل فج ليشهدوا منافع لهم ولأولادهم وهم لا يدرون أيعودون سالمين الى بيوتهم ام لا يعودون ".[7]

ومهما كانت الاختلافات الفكرية حول مفهوم الأدب المنجمي أو أدب المناجم.. وهل يجوز توظيف هذا المصطلح لنعت هذا الشكل من الابداع الادبي الذي يتعاطف ويتضامن مع فئة اجتماعية مسحوقة "عمال المناجم"، فإنه فرض نفسه كجنس أدبي فريد من نوعه له سماته الخاصة، وهو ما أشارت إليه الأديبة المغربية المبدعة مريم بن بخثة، وهي من مواليد 1963م بالدار البيضاء، حيث تقول في إحدى مداخلاتها حول أدب المناجم:

"إن الكتابة عن أدب المناجم كمن يمشي على حجر أملس لزج، قد تزل به قدمه، والغوص فيه إبحار محفوف بالمخاطر لا يقدر عليه ألا متمرس عانق الأحداث وعايشها أو تخيلها وأحسها بصدق، ومن هنا نطرح السؤال: ما الدافع للكتابة في أدب المناجم؟

أدب المناجم أو الأدب " الرمادي" كما يسميه الأدباء الغربيون، على امتداد الزمن شكل خصوصية في ريبيرتوار الرواية العربية المعاصرة الحديثة، فهو لم يأت من فراغ ولا يمكن اعتباره أدبا تخييليا مئة بالمئة، لأن غالبية الذين كتبوا فيه اكتووا بناره أبا عن جد، ولم يخل منهم إلا القليل على سبيل المثال لا الحصر إيميل زولا صاحب الرواية الشهيرة "جيرمينال" والتي تعتبر بحق المنطلق الحقيقي لأدب المناجم."[8]

وتضيف نفس الكاتبة (مريم بن بخثة) قائلة: "ولا يمكن الحديث عن أدب المناجم بعيدا عن الأدب عموما، و إن كان لايزال حديثا يمشي بخطى وئيدة فهي واثقة و ثابتة، فهناك من اختارهم المنجم واستفز مشاعرهم وجوارحهم كي يعروا واقعا حاضرا يكسوه الغبار و الصمت، فأزالوا اللثام و مسحوا الغبار وغاصوا في جوفه يستلهمون تلك الأرواح التي انسلت من أجساد أصحابها وغادرتهم

لتستوطن المنجم، تشكو له حالهم وبؤسهم و معاناتهم وأمراضهم ومخاوفهم وقلقهم، وتعيش حالهم اليومي بين صخور المنجم، وسعال صدورهم الذي يكسر صمت الأغوار، ويتقاطع مع صوت المطارق، فمازالت رائحة عرقهم يتنفسها الصخر الأصم فتحولت تلك المعايشة إلى قلم فياض ينقش بأدب متميز لوحات من الجمال الممزوجة بالمعاناة، فكان لسان صدق ينوب عنهم، وهناك من فتح عينيه ليرى أباه أو أخاه أو أحد أقربائه أو جيرانه منجميا يعيش اليومي بمعاناة وصمت ويربط حياته بذلك المنجم، فإما تصيبه لعنة المناجم فينهار سقف الغار عليه ليسلم الروح وسط الأنقاض، أو تتسلل السموم التي يستنشقها كل يوم لتستوطن صدره فتلتهب رئتاه فتغيب فيها الحياة و تتفاقم الحالة يوما عن يوم و يتحول السعال العارض إلى مرض قاتل نتيجة السيليكوز أو الأنتراسيت أو الأورانيوم، وتكثر الأمراض المزمنة كالربو وآلام المفاصل و هشاشة العظام و غيرها."[9]

وبناء على ما أوردناه آنفا من وجهات نظر مختلفة حول مفهوم الأدب المنجمي، نخلص إلى تعريف شامل للأدب المنجمي بما يأتي: "الأدب المنجمي هو ذلك الأدب المتعلق بالمناطق المنجمية، وما يدور فيها من أدب متعلق بالباطني والفوقي... أي بالمكان السطحي، والمتمثل في المدينة المنجمية وأحيائها ودروبها... والمكان التحتي والذي يتجلى في البئر والأروقة السوداء والممرات والسقوف وما إلى ذلك، كما يتضمن الإنسان العامل المنجمي المرأة الأطفال... المهندسين والأجانب الأوربيين... إنه أدب يتناول كل ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالمنجم.. يتناول تفاصيل الحياة المنجمية، ويرصد معاناة سكانها.. علاقاتهم الاجتماعية، والفروقات الطبقية في هذه البيئة". [10]

وعلى هذا الأساس يذهب المهدي نقوس إلى أنه: "لا يجب اعتبار الأدب المنجمي جنساً أدبياً منفصلا، بل هو فقط شكل من أشكال الكتابة التي تتخذ من معاناة المدن المنجمية موضوعاً رئيساً ليعرف بها وتعرية المآسي الجسدية والنفسية".[11]

وحول تاريخ ظهور أدب المناجم، فقد ظهر هذا النوع من الأدب في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ميلادي، لتسجل سنة 1885 ميلادية أول رواية تؤلف في الأدب المنجمي على يد الكاتب الفرنسي إيميل زولا بعنوان "جيرمينال". كما أن الرواية المنجمية لم تعرف طريقها إلى الأدب العربي إلا حديثاً، وذلك نظراً للأوضاع التي كانت تمر بها البلدان العربية فترة الاستعمار الأجنبي، كذلك كون مجتمعاتنا العربية لم تكن مجتمعات صناعية. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا النوع من الأدب انتشر في منطقة المغرب العربي، إضافة إلى أن الأدب المنجمي سبق فيه الشعر النثر "القصة والرواية"، وازدهر في تونس قبل أي بلد مغاربي آخر.[12]

تعد رواية "يوم من أيام زمرا" التي صدرت للروائي التونسي محمد صالح الجابري سنة 1968م، أول رواية مغاربية تكتب ضمن هذا الصنف –الأدب المنجمي– وقد صورت بحق معاناة الشعب من الفقر والظلم والاستبداد في ظل وجود الأجنبي الأوروبي الذي يتمتع بحياة أكثر رفاهية من السكان العرب، كما استطاع نقل معاناة عمال المناجم والظلم الذي يسلط عليهم، وهم يكدحون ليلاً نهاراً علهم يظفرون بما يسد رمق جوعهم، ناهيك عن خوفهم الشديد من تبعات العمل بالمنجم من انهيار الأنفاق وما يترتب عن هذا من موت وحوادث شغل إضافة إلى الأمراض الناجمة عن ظروف العمل.[13]

2)– تجليات الأدب المنجمي في الإبداعات الأدبية لأبناء مدينة جرادة:

تتميز الابداعات الأدبية لعدد من أبناء مدينة جرادة بحضور الفحم كرمز للألم والمعاناة، فرغم كونه موردا طبيعيا مهما بالنسبة للمدينة ومحركها الاقتصادي، إلا أن ما عاناه العمال من جراءه من أمراض وفواجع وراح ضحيته عدد من الشباب جعلهم يوظفونه في إبداعاتهم المتنوعة كتعبير عن السواد والبؤس الذي ساد المدينة، او كما يسميها أبناؤها ب"الجوهرة السوداء" نسبة للون فحمها الحجري، وقد صنفت هذه الابداعات سواء على مستوى الشعر أو الرواية أو القصة أو المسرح ضمن أدب المناجم.

وسنحاول أن نرصد تجليات هذا اللون الأدبي في بعض الإبداعات الأدبية التي أنتجها أبناء مدينة جرادة.

أ- في مجال الشعر:

تعددت القصائد التي أبدعها عدد من شعراء مدينة جرادة سواء كانت بنظام الشطرين التقليدي أو الشعر الحر الذي كسر الشكل القديم للقصيدة، وغالبا ما تعبر هذه القصائد عن الواقع الذي عاشته مدينة جرادة الجوهرة السوداء في الماضي، وما تعيشه في الحاضر، وما ستعيشه في المستقبل، هذا الأخير يتوقعه غالبية شعراء المدينة أحيانا بصورة بائسة واحايين أخرى بصورة مشرقة ومزهرة رغم الألم والمعاناة التي كابدها عمال المناجم وأسرهم، ولذلك سنحاول أن نركز على بعض القصائد التي تصنف ضمن الشعر المنجمي المتميز بالتعبير عن واقع المدينة المنجمية بصفة عامة، وسنستحضر المقاطع الشعرية المتضمنة لهذا النوع من الإبداع.

✓ أبيات شعرية من قصيدة "لقمة الفحم" للشاعر عكاشة البخيت:

"علم في حينا رمز الألم ... حجري الروح دام كم قتل

مطرقٌ يهذي على مر الدجى ... كم حكى والحكم بؤس وخجل

حالم مذ كان يخبو بيننا ... ما بها الأحياء فالموت نزل

غرقت في الوحل أيام الصبا ... وتداعى الوجد في حضن الأجل

زغردي يا حب واحكي عنهم ... غيمة تعبر والحزن جلل

لقمة الفحم سواد ليله ... طال والفقر شهاب ما العمل؟

آه ما أثقل حملا هل درى ... كلما شاخ فؤاد لم يزل

ما اعترى الأحياء آه ما اعترى ... غسقا والعين تعوي والخبل؟

في ثرى الأرض نفوس رقرقت ... ونعى الحي ربيعا قد رحل

غدر الدهر به ويح المنى ... ما بها الأيام تروي ما حصل

في فجاج الوهم تاهت كمدا ... وشباب الحي من عنه سأل

شيدوا صرحا بأوهام السرى ... فهوى السعد صريعا والأمل

بين أمواج وليل مقمر ... عبروا واليم رقص أو خبل

كم بكى الجد على أحفاده ... والهوى يهطل طلا والقبل

اسأليه عن قبور شيدت ... من رماد الفحم ليلى ما العمل؟

كم رعت سلمى حبيبا رحلت ... روحه تقطر والقلب عسل (...)[14]

يحيل عنوان القصيدة "لقمة الفحم" للشاعر عكاشة البخيت على ما يحصل عليه العامل لتدبير معيشته اليومية داخل فضاء المنجم وما يلاقيه من صعوبات جمة.

يبدأ الشاعر حديثه عن المكان وعن المدينة التي تحتضن ذلك الجبل من الفحم. الجبل الأسود رمز المآسي، فقد مات بالمناجم آلاف العمال الذين كانوا يعملون بأدوات بدائية تستغلهم الشركة ولا توفر لهم ظروف العمل، حيث الموت في المدينة في الأحياء السكنية الفقيرة المهمشة، وكانت المناجم تنهار على العمال وتقتل من تقتل وتشرد باقي الأسر، فهذه القبور تحكي ماضي العمال الأليم ...كما تحدث أيضا عن العلاقات الاجتماعية والعاطفية بين العمال وذويهم وأحلامهم وطموحاتهم المستقبلية التي أضحت سرابا... وعلى العموم يرثي الشاعر واقع المدينة المرير الذي عايشه العمال وذويهم منذ اكتشاف الفحم الحجري، وما سيكابدونه بعد إغلاق المنجم من مشاكل صحية وتهميش حقوقي، ونهب وفساد ...

✓ مقاطع شعرية للشاعر عبد القادر بنهار:

" تأبطني قدر

ومشيئتي قد رسمت

في الغيب ظلالا تتربصني

من أعلى جبل العمال أطل على ذاكرة

مشرعة

أقطف منها قبلا ..

..وأتيه...

ويطل الموت. السيليكوز. "الفورنو"

وحبيبتي في المنفى الأبدي..

أتيه..

وأنين. وسواد. وخيالات..

وأنادي ملكا فيجيبني شيطان

وأطال النجم. الدمع. الورد. الصخر. الشعر..

"الرمبلي"* يلح علي

أدركني الشيب. الحزن.

وفؤادي تكسوه عيون أبي الزرقاء. الإضراب. الفحم... "[15]

(...)

اختار الشاعر عبد القادر بنهار عنوانه "البحث عن مدينتي" ليحفر من خلاله في ذاكرته بمدينة جرادة التي ولد ونشأ فيها، واستهل قصيدته بحتمية القدر عليه أن يكون من أبناء "الجوهرة السوداء"، وبعدها يذكر "جبل العمال" وهو الجبل الأسود الشامخ وسط المدينة رمز السواد والمعاناة، حيث يطل من قمته ليتذكر المآسي التي عايشها عن كثب ويذكرها بشكل صريح: الموت، والسيليكوز، ويذكر "الفورنو" وهو فرن معروف عند سكان المدينة يشتعل بالفحم الحجري ويوظفونه للتدفئة والطهي والاستحمام... فالشاعر هنا يستحضر مواقف ولحظات يعيشها كل من نشأ بمدينة جرادة، وخلال تيهانه وسرحانه في الذاكرة يطفو الأنين والسواد...أي معاناة العمال وذويهم والتهميش الذي طال مدينة جرادة بشكل عام.

✓ مقاطع شعرية للشاعر السهلي عويشي:

"أنا يوسف الفحمي

يا أبتي

ولدت من بئر

وفي فمي

ملعقة من فحم

لم نكن نعرف

طعم الزيتون

ولا طعم الليمون

كل ما كان

رغيف فحمي

وحليب فحمي

كنا نرضعه من أثداء أمهاتنا

ولعب فحمية

نصنعها بأيدينا

كل شيء كان بلون الفحم "[16]

(...)

وظف الشاعر السهلي عويشي الفحم الحجري كرمز للسواد والألم والمعاناة التي يعيشها الطفل الذي نشأ وترعرع في مدينة جرادة "اللؤلؤة السوداء"، واختار له اسم "يوسف الفحمي" وهو عنوان القصيدة، ومعناه يوسف الذي تربى وسط الفحم، منذ كان طفلا رضيعا، فقد فتحت عيناه على سواد الفحم، فأول لقمة سد بها رمقه كانت مما كده أبوه في مناجم الفحم، وحتى الحليب الذي رضعه من ثدي أمه صوره الشاعر بصورة سواد الفحم، وكل شيء كما ورد في المقطع الأخير كان بلون الفحم، وعلى العموم فالشاعر تمكن من تجسيد الواقع الأسود الذي عاشه أبناء العمال بمدينة جرادة.

ب- في مجال الرواية:

ساهم أدباء مدينة جرادة بمجموعة من الإبداعات الروائية في إغناء الرصيد الثقافي الأدبي للمدينة والتعريف بقضاياها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وصون ذاكرتها، وإبراز الواقع المعاش لسكانها المتسم بالمرارة والألم والتهميش والقهر.. بكونها مدينة منجمية استغلها المحتل الفرنسي الغاصب أبشع استغلال ولم تنصفها الحكومات المنتخبة بعد الاستقلال ببدائل اقتصادية حقيقية تنعش أمال ساكنتها بعد قرار إغلاق المنجم.

سبق الذكر أن مجمل الإبداعات الأدبية لأبناء وبنات مدينة جرادة يغلب عليها السواد وكأنها كتبت من رماد الفحم الحجري، كيف لا وهم عايشوا وقائع وأحداث حزينة تدمي العين، عندما تنهار بئر من أبار الفحم الحجري على شباب في مقتبل العمر يسْتَرْخِصُون أراوحهم في سبيل الرغيف الأسود. والروائي الذي عاش بمدينة جرادة لا يمكنه أن يسرد نصا إبداعيا حولها دون أن يبوح بما يختلجه وجدانه من حزن وألم وحسرة على ما عاشته "الجوهرة السوداء"(جرادة) من كوارث إنسانية يندى لها الجبين، وما تعيشه في الحاضر من تهميش وإقصاء.

نستهل الابداعات الروائية المصنفة ضمن أدب المناجم برواية لأحد المبدعين من أبناء مدينة جرادة ويتعلق الأمر بالكاتب محمد العرجوني، وهو من الجيل الذي عايش الظروف القاسية التي كابدها العمال بمناجم جرادة مما ألهمه ليبدع رواية باللغة الفرنسية بعنوان" matricule 4892 Amphion" عن مطبعة الرباط – نيت سنة 2008، لتُستقبل حينها بحفاوة في الأوساط الثقافية بالجهة الشرقية، وبالمحافل الإلكترونية، وبعد أربع سنوات ونيف يظهر هذا العمل الروائي المتميز في ترجمة إلى اللغة العربية أنجزها الشاعر و الكاتب عيسى حموتي، لتصدر الرواية في طبعتها العربية عن مطبعة الجسور بوجدة تحت عنوان "أمفيون الرقم المهني 4892" في حوالي 140 صفحة من الحجم المتوسط.

وكقراءة سيميائية لعنوان الرواية، فهناك تحليل دقيق قام به أحد النقاد والأدباء البارزين بالجهة الشرقية وإقليم جرادة على الخصوص، المسمى سامح درويش ومن مواليد 1957م بقرية "كْفايت" على مسافة قريبة جنوب مدينة جرادة، حيث قسم العنوان إلى شقين وحلل دلالتهما على النحو الآتي:

- أمفيون :Amphion شخصية أسطورية، وهو ابن زيوس في الأساطير اليونانية القديمة. هو مَلِك طيبة(Thèbes) ، وزوج نيوبي (Niobé) ابنة تانتالوس مَلِك فريجيا، التي أنجبَ منها أمفيون سبعَ إناث وسبعَة ذكور قتلَهم أبولو Apollon و زوجته أرتميسُ Artémis جميعاً باستثناء كلوريس Chloris، ذلك لأنها كانت تفتخر بجمالهم وسخِرَتْ من ليتو لأنَّ لديها ابنا واحدا هو أبولو وابنة واحدة هي أرتميس، فانتقم أبولو بأنْ قتلَ أبناءها وانتقمَت أرتميسُ بأنْ قتلَت البناتِ وظلَّتْ جثَثُهم غيرَ مدفونة حتى دفنتْهم الآلهةُ. وعادت نيوبي إلى وطنها وظلَّت تبكي حتى تحوَّلَت إلى حجر، لتنفجر بعد ذلك موهبة أمفيون

الموسيقية ليشرع في بناء مدينة طيبة اعتمادا على قوة نغمات مزماره، حيث كانت الأحجار تتحرك من تلقاء نفسها تحت تأثير نغمات مزمار "أونفيون" لتتشكل في بناء متكامل، ولعل الكاتب محمد العرجوني قد استلهم الأسطورة تحت تأثير ما يحدثه عملية تنفس عامل الفحم المصاب بداء "السيليكوز" من أصوات قادرة على بناء مأساة بكاملها.[17]

- الرقم المهني 4892 : وهو الرقم المهني لأب الكاتب الذي سبق له أن اشتغل منجميا، ولئن كان هذا العمل الروائي ينبض بأنفاس مناجم الفحم بمدينة جرادة، إذ تعود وقائعه وأحداثه إلى سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي لتتناول الواقع المأساوي والنشاط النضالي لعمال مناجم الفحم الشهيرة بمدينة جرادة مسقط رأس الكاتب الذي عاش طفولته في قلب الأحداث التي يرويها حتى أن الرواية قد تقاطعت مع السيرة الذاتية للكاتب، وما عنوان الرواية إلا إحالة لوالد الكاتب محمد العرجوني الذي كان يحمل رقم 4892 بين عمال المناجم ، وليست المقاطع المروية على لسان طفل في الرواية سوى مقتطفات من سيرة الكاتب نفسه.[18]

وكتحليل شامل لرواية "أمفيون"، قام الأديب والناقد سامح درويش بقراءة تحليلية دقيقة لها، وخلص من خلالها إلى أنها تتسم بمجموعة من الخصائص سواء من حيث الأسلوب السردي والمضمون والشخوص والقضية التي تشكل المحور الأساس الذي تدور حوله تفاصيل الرواية ألا وهي قضية عمال مناجم جرادة، وقسمها على النحو الآتي:

- الموت المتعدد والحكي المتفرد:

ليس غريبا أن تنطلق مجريات السرد في رواية "أمفيون : الرقم المهني 4892" من لحظة اختناق بسبب داء السيليكوز، حيث يحكي السارد (أي أمفيون) سيرة عبد السلام الجبلي نحو منجم الفحم من مكان رقاده الأبدي في سفح جبل زيدور، مثيرا الانتباه منذ البدْء إلى عدم قدرته على التنفس بسبب رئتيه اللتين " أصبحتا عبارة عن حجرين من السليس والأنتراسيت"، لتتعدد بعد ذلك صيغ الموت وأشكاله بقاسم مشترك يتمثل في لون الفحم، بدءا من صيغة موت المنجمي الحفار "دا مبارك" الذي لقي حتفه على إثر انهيار منجمي في باطن الأرض، مرورا بموت السي عمر الذي خدعته استراحة منجمي بعد استلقائه على الشريط المطاطي المتحرك الذي ينقل الفحم من العمق نحو السطح، لينتهي جسدا نائما في القمع العملاق الذي يمر المنتوج اليومي من الفحم إلى عربات النقل، و صيغة موت "با موح" الذي أصر بالرغم من كبر سنه ومعاناته من مرض السيليكوز على مشاركة العمال إضرابهم داخل أنفاق المناجم آملا أن يعوض بذلك رغبته في أداء مناسك الحج، ليلفظ أنفاسه الأخيرة في جوف الأرض محاطا برفاقه العمال المعتصمين، وصولا إلى شكل الموت المفجع لخمسة عمال وثلاثة عرفاء ومهندس واحد دفعة واحدة بسبب العطب القاتل الذي حصل للعربة (الونش) الذي ينقل العمال إلى باطن الأرض. لذلك يمكن اعتبار الموت هو البطل الحقيقي الذي يستجمع كل بطولات شخوص هذا العمل الروائي، غير أنه ومهما تعددت صيغ الموت فإن الحكي يبقى متفردا يسوسه حاك عارف بحياة العتمات المنجمية، وأن تقنيات السرد تنصهر في لغة واحدة هي لغة الألم والقهر.[19]

- الغرائبية في صلب الواقعية:

لن نجازف إذا قلنا إن رواية "أمفيون : الرقم المهني 4892" تندرج ضمن أدب المناجم الذي ينضح بالواقعية منذ إميل زولا حتى محمد العرجوني، ذلك أن هذا الأخير ينقل تفاصيل حياة مناجم الفحم بجرادة بواقعية ومهارة، ويصور آليات وتجهيزات العمل داخل المناجم، وكذا آلام وأحلام ومعاناة المنجميين تصوير العارف بموضوع الكتابة، غير أنه يعمد إلى تكسير هذه الخطية الواقعية باستدراج أنماط سردية وسجلات تخييلية مغايرة، ويجعلها تنهض من صلب الواقعية، ولعل أوضح دليل على هذا الأمر توظيف الكاتب لحكاية الجن "شَمهروش"، ولشخصية "مْقِيدَشْ" ذات العمق الشعبي، وكذا لعدد من الخرافات والأساطير والسجلات الشعبية التي تشكل جزءا هاما من ثقافة ووجدان عمال المناجم.[20]

- تجريبية الحكي بمثابة أداة فنية:

وإن كانت أحداث هذا العمل الروائي الجدير بالقراءة تتميز بقسوة الأنفاق المنجمية وشظف عيش العمال وتلقائية الفعل التواصلي الذي يتأسس داخل ظلمة المناجم بعيدا عن أي تنميق أو تثاقف زائد على اللزوم، فإن تقنيات سرد هذه الوقائع والأحداث يتميز بحس تجريبي واضح، يحاول أن يخرج عن ستاتيكية الحكي وخطيته ونمطيته المعروفة في أدب المناجم إلى آفاق التخييل الواسعة، من خلال استعمال أنماط حكائية من سجلات الثقافة الشعبية، ومن الفانطاستيك المشار إليها آنفا، بل ومن خلال استعمال تقنيات التنشيط المكسرة لخطية السرد كما هو الشأن بالنسبة لمنح "مُقِيدَشْ الحاكي" حيزا من الزمن لتأثيث ليالي العمال المعتصمين في جوف المنجم بحكاية الأسد وابن آوى والحمار، وكذا ل "حكوم الناظم" الذي يتمتع بقدرة عالية على حفظ أشعاره، ليتحف العمال بقصيدة عن جرادة الجميلة والمتوحشة في الآن نفسه. ذلك ما أشار إليه الناقد محمد داني في تقديمه لهذا العمل الروائي حين قال: "ما يجعل جمالية الرواية وفنيتها تظهران جليا .. هو توفرها على آليات روائية وظفها الكاتب ليعطي لروايته نوعا من التجريبية والحداثة، والابتعاد عن المألوف..."[21]

من هنا يمكن أن نعتبر أن رواية "أمفيون الرقم المهني 4892" قد نجحت في التوثيق لمرحلة فارقة في تاريخ مدينة "فدان الجمل" (جرادة)، من خلال التأريخ الفني لفترة استغلال مناجم الفحم والإنسان معا، كما نجحت في كونها قد شكلت قيمة مضافة للتراكم الروائي بالجهة الشرقية.. ومع كل ذلك فلا يسع كل من استمتع بقراءة هذه الرواية إلا أن يعلن عن تضامنه اللامشروط مع "شخصية الجزار" الذي ظل يتوسل الكاتب نهاية لحكايته، لينعته في النهاية بقوله : "ما أنت إلا حقير كاذب".[22]

وبعد هذا التحليل الدقيق والشامل لرواية "أمفيون"، سنورد بعض المقاطع منها، و كما سبق أنها تتحدث لغة واحدة وهي لغة الألم والقهر الذي كابده عمال المناجم بجرادة، وهو ما يصوره المقطع الآتي:

"دا مبارك سوسي جاء من بعيد، من سوس، بعد أن احترقت أرضه وتفحمت شجرة الأرغان الوحيدة – التي ورثها – من جراء صاعقة أصابتها وما حولها... حدثوه عن منجم للذهب، بعيد جدا، حيث يستطيع جمع أموال كثيرة، عن طريق الحفر فقط. سيتمكن من شراء قطيع من الماعز، وجهاز فونوغراف، ويغرس بعض شجر الأرغان، يستخلص زيوتها، وينتج الكثير من "الأملو"، وهكذا سيستوي قائما على رجليه، ويعيد بناء حياته من جديد... كان يرغب في جمع ثروة، والعودة إلى الأرض الحمراء الخصبة... فمات في الأرض السوداء الجرداء".[23]

يسرد الكاتب محمد العرجوني من خلال مقطعه الروائي السابق قصة ذلك الرجل السوسي الأصل الذي كان يطمح في الوصول إلى جرادة والعمل في المنجم لتعويض ما تعرض له من خسائر بعد أن احترقت أرضه وضاعت ثروته المتمثلة في شجر الأرغان، إلا أنه وبعد تحقيق حلمه وعمله في منجم جرادة ساقه القدر إلى موت فاجع في باطن الأرض. وقد تعمد الكاتب توظيف شخصية دا مبارك السوسي باعتبار أن العمال الذين وفدوا إلى جرادة بعد اكتشاف الفحم الحجري وبداية الإنتاج خلال ثلاثينات القرن الماضي، كانوا من سوس.

لم تقتصر الكتابة الروائية لأبناء مدينة جرادة على أدباء أبدعوا في تصوير الواقع الأسود للمدينة وما تكبده آباؤهم وأقرباؤهم أو غيرهم من مواجع داخل المناجم أو خارجها. بل هناك رواية تحكي عن تجربة واقعية عاشها الروائي في مناجم الفحم الحجري بجرادة، باعتباره عاملا سابقا بالمنجم لمدة عشرين سنة كما أخبرني أثناء استجوابي له حول روايته المعنونة ب"مينور شربون" ومعناه "مَنْجَمِيُّ الفحم الحجري"، ويتعلق الأمر بالكاتب العصامي محمد الدويمي،[24] الذي يصنف إبداعه بالمطلق ضمن الأدب المنجمي الحقيقي باعتباره ينقل لنا الواقع المر الذي عاشه عمال المناجم في الانفاق، وهو الذي قضى عقدين من عمره في أعماقها.

إن رواية "مينور شربون" تجعل القارئ يكتشف عوالم مناجم الفحم في أعماق باطن الأرض وسط الانفاق، فيحكي الكاتب "محمد الدويمي" تجربة طويلة من حياته منذ وصوله إلى المدينة والتحاقه للعمل بالمنجم وما كابده من ألم ومعاناة.. في طبق أدبي ماتع، وقد تحدّث بلسان حال جميع العمال وفاءً لأرواح الشهداء منهم، ودعما للمعطوبين ومرضى السيليكوز الذين يسيرون في طريقهم للموت بثبات.

قسم الكاتب روايته إلى 12 فصلا، يحكي في كل منها التفاصيل التي عاشها منذ قدومه من القرية إلى مدينة جرادة وطموحه أن يصبح منجمي فحم لتحقيق أحلامه وأحلام أسرته.. إلى غاية إحالته على التقاعد، وكملاحظة عامة عن الرواية فرغم جماليتها من حيث السرد لما يتمتع به الكاتب من أسلوب تعبيري ماتع.. فإنها تعكس ما كابده الكاتب من معاناة وألم وجروح غائرة طيلة عمله بالمنجم بفعل ما عايشه من أحداث فاجعة داخل الأنفاق، ولذلك استغل فترة الحجر الصحي التي عاشها المغرب بعد انتشار وباء كورونا بمختلف بقاع العالم سنة 2020م ليبدع روايته المذكورة آنفا، وينفس من خلالها عن المشاعر الأليمة التي تخالجه من جراء تجربته المريرة في المنجم، وقد نجح في الكشف عن معاناة عمال المناجم وقدم عملا إبداعيا رائعا تكريما وإجلالا لهم لما قدموه من تضحيات. وقد عبر عن ذلك في أحد مقاطعه ضمن نفس الرواية (مينور شربون) قال فيه: "إن عمال الفحم يستحقون الخلود لا النسيان ... فحياتهم جديرة أن توثق وتروى للأبناء والاحفاد ... كل شبر من جرادة وضع فيه العمال اقدامهم يشهد على تضحياتهم ونكرانهم لذواتهم".[25]

في أحد مقاطعه ضمن روايته الآنفة الذكر، وبأسلوب سردي سلس يصور لنا الكاتب محمد الدويمي الروتين اليومي الذي عاشه كعامل في مناجم جرادة.. حيث يقول:

"تمر أيام العمل بمنجم الفحم متشابهة.. يصعد العمال ويهبطون خلال رحلتهم اليومية المعتادة .. رحلة "الداخَلْ ميتْ والخارَجْ حيّ". تمتزج آهاتهم مع صخب آلات المنجم...يكفنهم الظلام والغبار وتلاحقهم أوامر المسؤولين التي لا تنتهي...ها أنا أسير في مسارب هذا العالم الباطني المظلم..يلفني الغبار من كل جانب..أستنشق الغبار..ألتمس طريقي في المسارات الضيقة المغبرة..يرشدني المصباح الذي يفقد توهجه مع مرور الوقت...أقطع الفحم معتمدا على ساعدي والمطرقة...كل يوم يترك المنجم جرحا غائرا في نفسي، فيصبح عقلي مثل رحى تطحن الهواجس والتوجسات والمخاوف فتذبل أحلامي..."[26]

ينقل الكاتب في مقطعه السابق عبر سرده المحبوك الواقع المرير الذي تكبده أثناء عمله في مناجم الفحم الحجري، وقد سمى رحلة العمال في الأنفاق ب "الداخَلْ ميتْ والخارَجْ حيّ"، أي أنها رحلة محفوفة المخاطر لا يضمن فيها العامل أمنه وسلامته، فدخوله لتلك الأنفاق العميقة يعتبر مغامرة بروحه، وبمجرد خروجه منها يكون قد ضمن حياته.. ويضيف الكاتب المكافح وهو يعتصر ألما:

"رغم ذلك أحاول أن أنسى تعبي وانكساراتي...أتجاهل الأحداث المأساوية اليومية التي تفصّل مقاساتها في كل شبر من الباطن..

موت..

جروح..

عاهات..

أمراض...

أحداث مؤلمة تقتات عليها جرادة صباح مساء..

تلوكها الألسنة في المقاهي والدكاكين وقرب المساجد وفي الأسواق وخلال المناسبات.."[27]

رغم إحالته على التقاعد ظلت الأحداث المأساوية التي عاشها بالمنجم راسخة في ذاكرته، فيضيف الكاتب/العامل في أحد المقاطع من الفصل الأخير من الرواية قائلا:

" تواصل ذاكرتي استعراض الصور المرعبة...

تطوقني استغاثات أحد العمال وهو يحاول جاهدا تخليص نفسه من أسر الصخور والأتربة التي طمرت نصف جسده. لقد حالت الانهيارات بينه وبين زملائه الذين تمكنوا من النجاة بجلدهم. كانوا يسمعون صراخه من الجانب الآخر وهو يتوسل إليهم بالإسراع إلى نجدته حين غطت الصخور والأتربة نصفه السفلي وشلت حركة رجليه... حين أبطأ رفاقه في نجدته، وأدرك أن الموت يقترب منه لا محالة، توسل إليهم ثانية، وهو يبكي، أن يناولوه ساطورا يجز به نفسه شطرين وينجو بما تبقى من جسده، لأنه لا يريد أن يرى نفسه وهو يموت بهذه الطريقة."[28]

خاتمة وتوصيات:

تأسيسا على ما سبق، فالإبداعات الأدبية لأبناء مدينة جرادة متنوعة تتوزع على مختلف الأجناس الأدبية سواء في مجال الشعر أو الرواية، وقد اقتصرنا على بعضها التزاما بالحيز المطلوب، وفي أكثرها تصنف ضمن الجنس الأدبي المعروف ب"أدب المناجم"، ومنها ما استحضرناه من قصائد وقصص وروايات أبدعها أبناء جرادة "الجوهرة السوداء" وعروا من خلالها الواقع المر الذي عاشته مدينة جرادة سواء تعلق الأمر بمعاناة عمال المناجم في الباطن.. أو على السطح في الأحياء والازقة والدروب... وهي إبداعات نجحت في توثيق الذاكرة الجماعية للمدينة بشكل عام، والذاكرة المنجمية على وجه الخصوص، ومن خلال التعمق في قراءتها نستشف أنها تتكلم لغة واحدة وهي لغة القهر والألم والمعاناة مع بصيص من الأمل والتفاؤل للمستقبل.

وفي الختام نناشد الجهات المعنية وعلى رأسها وزارة الثقافة والاتصال أن تلتفت لهذا النوع من الإبداع الثقافي وتساهم في إشعاعه عبر تنظيم ندوات وأيام دراسية ومؤتمرات جهوية ووطنية للتعريف بهذا الجنس الأدبي ومن ساهم فيه من شعراء وروائيين وخاصة أبناء مدينة جرادة، وهو أمر سينعكس بشكل إيجابي على المدينة وإشعاعها الثقافي وصيانة ذاكرتها المنجمية.

الهوامش:

[1] – جماعة جرادة، برنامج عمل جماعة جرادة. ص.7.

[2] – جماعة جرادة، م س. ص.29.

[3] – www.marefa.org

[4] – www.marefa.org

[5] – أدب المناجم المصطلح والمفهوم، محمد الهادي زعبوطي. نشر بموقع https://alantologia.com/page/6178/.

[6] – نفسه.

[7] – نفسه.

[8] – جماليات النص الإبداعي المنجمي، مريم بن بخثة. ضمن نص المداخلة في الملتقى المغاربي الأول لمدينة اليوسفية أيام 05/06/07 أبريل 2019م. نشر بموقع: https://alantologia.com/blogs/29971/ .

[9] – جماليات النص الإبداعي المنجمي، مريم بن بخثة. م س.

[10] – أدب المناجم "من خلال رواية محمد العرجوني (أمفيون الرقم المهني 4892)، محمد داني. ص. 09.

[11] – الأدب المنجمي بين التجنيس ورهانات الكتابة صورة المنجمي في الإبداع الأدبي أنموذجاً، المهدي نقوس. نشر بموقع: http://alantologia.com

[12] – أدب المناجم "من خلال رواية محمد العرجوني (أمفيون الرقم المهني 4892)، محمد داني. م س، ص.11.

[13] – تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر، مجموعة من الباحثين. ص. 70.

[14] – الملتقى الأول لذاكرة جرادة، ماذا بعد؟ عبد القادر بنهار. ص–ص 65–66.

[15] – قصيدة "البحث عن مدينتي"، عبد القادر بنهار. ضمن الملتقى الأول لذاكرة جرادة –ماذا بعد؟، عبد القادر بنهار. م س، صص:57–58.

* الرومبلي: ركام من بقايا الفحم بعد غربلته... وهو على شكل تل، وهناك ركام فحمي كبير وسط مدينة جرادة، يسميه سكانها بالجبل الأسود.

[16] – قصيدة "أنا يوسف الفحمي"، السهلي عويشي. ضمن الملتقى الأول لذاكرة جرادة –ماذا بعد؟، عبد القادر بنهار. م س، ص–ص:67–68.

[17] – في روايته "أمفيون : الرقم المهني 4892".. محمد العرجوني يستعيد سيرة الفحم، سامح درويش. نشربموقع: https://www.maghress.com/alittihad/192785 .

[18] – نفسه.

[19] – في روايته "أمفيون : الرقم المهني 4892".. محمد العرجوني يستعيد سيرة الفحم، سامح درويش. م س.

[20] – في روايته "أمفيون : الرقم المهني 4892".. محمد العرجوني يستعيد سيرة الفحم، سامح درويش. م س.

[21] –نفسه.

[22] – أمفيون الرقم المهني: 4892، محمد العرجوني. ص–ص: 17–18.

[23] – نفسه.

[24] – رواية شفوية أفادني بها السيد محمد الدويمي، بتاريخ 13 يونيو 2023م بجرادة. وهو من مواليد 1959م.

[25] – "مينور شربون"، محمد الدويمي. ص.138.

[26] – نفسه، ص.121.

[27] – مينور شربون، محمد الدويمي. (رواية)، م س، ص..122.

[28] – نفسه، ص.151.